بعث وانبثـــاق

للأستاذ فوزى عرفه

فى هذه الأيام تتناول الأقلام موضوعين على جانب كبير من الأهمية وهذان الموضوعان هما : الدستور القادم وحاجة البشرية إلى انبثاق النور الإسلامى عليها حتى تجد فى ظلاله الوارفة أمناً بعد خوف وهدوءاً بعد قلق وراحة بعد تعب . ومن الملاحظ أن الأقلام التى تناولت الموضوعين تناولتهما منفصلين وكان الأحرى بها أن تجمع بين الموضوعين وتوفق بينهما توفيقاً متكاملا حتى لا نلجأ بعد ذلك إلى سد الثغرات بقوانين مكملة أو بقرارات يصدرها ذوو الرأى عند ما تظهر الحاجة الملحة إلى سد الثغرات .

أما كيف كان ذلك ؟ فالأمر على هذا الوجه : نحن نريد أن تظهر جمهوريتنا الحبيبة بمظهر مثالى وأن نجعلها تضطلع بأعبائها كاملة غير منقوصة حتى تقوم بالدور على كتفيها وحتى تحقق أمل الشعوب العربية والإسلامية فيها .

وظهورها على هذا الوجه المثالى يدعوها لأن تتحمل جانب النهضة والدعوة إلى الحضارة من جميع جوانبها . وتتميز الحضارة العربية — فيما تتميز به — بأنها متحررة مرنة مفتوحة دائمة دائبة بفضل انضمامها تحت لواء الإسلام وقد كان الإسلام هو القذيفة التى انطلقت ففجرت طاقات العرب تفجيراً قوياً جعلهم وهم على بداوتهم يبنون ويشيدون ويقيمون ويعمرون وينقلون البشرية جمعاء من غياهب العصور المظلمة لى نور الحق واليقين .

كان لزاماً علينا — إذن — ونحن على أبواب الفتح المجيد الذى يشبه فتح الله لرسوله وللمؤمنين تبعاً لسنة الله الجارية وقضائه المحكم الذى جاء فى كتابه الكريم « ولينصرن الله من ينصره » « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » أن نقف وقفة قصيرة لنتدبر أمرنا ونعد عدتنا حتى إذا ما أرسلنا الرسل وبعثنا الدعاة كانوا على بينة من أمرهم

فيناقشوا على بينة ويدعوا الى دين الله ولديهم الكتاب والسنة وأعمالنا العظيمة الباهرة التى تؤيد ما تدعو إليه .

وعلى هذا يكون للأمر وجهان : وجه داخلى ، أعنى به التنظيم الداخلى فى وسط أمتنا الكريمة ووجه خارجى وهو الدعوة إلى الإسلام على نطاق عالمى .

أما التنظيم الداخلى : فينبغى أن يأتى منطقيا أولا : أعنى أن نبدأ أولا بإصلاح أنفسنا وإصلاح مجتمعنا وإصلاح حياتنا على أساس من الإسلام . وذلك الرأى هو مالمسته الأقلام فجعله الأستاذ أحمد حسن الزيات ثورة رابعة وجعله البعض إصلاح الدين أوالضمير أوإحياء الوازع الدينى إلى آخر ما جرت به الأقلام فى الأيام الأخيرة .

والواقع أن أعمال الثورة المجيدة التى أحيت الميت وأخصبت المجدب تحتاج فعلا إلى أن ترتبط بأساس روحى يدعم مكانتها ويجعل الناس يشعرون أن حياتهم تؤدى إلى آخرتهم وأن يومهم موصول بغدهم وأن كل إنسان مجزى بما يعمل و « كل نفس بما كسبت رهينة » هاهنا يتحقق التجاوب التام بين مطالب الحياة الدنيا ومطالب الآخرة وبين مطالب العقل ومطالب القلب وبين حاجات الجسد وحاجات الروح .

ولكن كيف يكون ذلك ؟ إن الأمر هين وبسيط : وأوله أن نبدأ بنية العمل وثانية أن ننظر إلى الوضع الصحيح ونرجع بجميع مشروعاتنا إلى ذلك الوضع فتبدأ مشروعاتنا من المسجد وتنتهى إلى المسجد أعنى أن يكون للمسجد وضع أى وضع فى جميع مشروعاتنا ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

الفلاح عندنا رجل متدين يميل إلى الآخرة والمثل الدينية ويتعلق بها وقد أقمنا مشروع الوحدات المجمعة وأردنا بهذا المشروع أن يكون مركز إشعاع فى القرى يجذب إليه الفلاحين الذين أنهكتهم سنون عديدة من الاستعمار بأنواعه : التركى والفرنسى والإنجليزى . ولكن الفلاحين — أو بعضهم على الأقل — لم يفهم هذا المشروع . لماذا ؟ لأنه لا يجيب جميع مطالبهم ولو جعلنا هذا المشروع على الوجه الآخر بحيث يرضى مطالب الفلاح الدينية والدنيوية . إذا أسسنا فى المجمعة مسجدا وجعلنا خطيب القرية ينتقل إليه والفلاحون يصلون فيه لتغيرت الوحدات المجمعة تغيراً كبيراً وأصبح لها فى حياة الفلاح شأن كبير .

ولكن ليس الأمر مساجد أو أبنية . فإن أخطر شيء على الإسلام أن ينقلب إلى أبنية لاتزار إلا فى أوقات محدودة وإنما الأمر هوأمر وأحياء الرمز وانبثاق العمل جميعه من رفقة الإسلام الواعية وأن نكون فى نور مبين فنسأل أنفسنا عند ما نعمل أى عمل هذا السؤال الهام : ما رأى الإسلام فيه ؟ لا أن نعكس الأمر فنقول : ما رأى الغرب فيه ؟ ولو انعكس الأمر لبدت أمتنا أمة متميزة لا تقلد ولا تتبع إلا ما تراه منسجما مع تقاليدها ومتمشياً مع عاداتها وأعرافها وأديانها .

وخذ كل عمل نعمله وصفه قبل التنفيذ على أساس هذا السؤال الهام : كيف نربطه بالإسلام ؟ وكيف نؤسسه على أساس إسلامى ؟ وكيف تربط بينه وبين الروح ربطاً محكما . فيعطينا فى النهاية الجسد المتحرك أوالحركة المتجسدة بدلا من أن يعطينا جسدا بلا حركة وبناء بلا روح ونظاماً بلا عقيدة .

ينبغى — إذن — أن نجعل أعمالنا جميعاً موصولة بالروح ويقين الإيمان ونور الهداية فتكون التربية على أساس إسلامى تؤثر الإيثار على الأثرة والجماعة على الفرد وتكون المصارف والبنوك مؤسسة على أساس إسلامى وتكون جباية المال على أساس إسلامى ويكون المجتمع مؤسساً على أساس إسلامى حيث يعم التراضى بين الطبقات بدلا من الصراع والتناقض ويظلل الجميع تعاون وتساند حتى يحق فيهم قول الرسول « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وعلى هذا أقترح ما يلى :

١ — أن ينص فى الدستور على أن يكون مصدر قوانيننا وتشريعاتنا الإسلام وما يتلاءم مع أهدافه وغاياته .

٢ — أن يكون الجامع هو محور جميع الإصلاحات التى نبغيها .

٣ — أن يختار مذهبه وسط بين المذاهب جميعاً ويدرس فى جميع مدارس ومعاهد الجمهورية على أن يترك دراسة المذاهب الأخرى لفروع التخصص .

ذلك هو الجانب الأول من الموضوع فلو أتممناه وأصلحنا أنفسنا وغيرنا ما بنا غير الله حالنا « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وحينئذ ننفذ قوله

تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وحينئذ نصطفى منا جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر عملا بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

* * *

أجل إن العالم محتاج إلى الإسلام فى هذه الأيام أكثر من احتياجه إليه فى أى يوم مضى فليس هناك دين ثبت أمام الاحتكاك العلمى والحضارى مثل الإسلام فقد تناوشته الصروف وعدت عليه العوادى فباءت جميعها بالفشل وكتب لهذا الدين أن يخرج من المعمعة أكثر جلاء وأبهى عظمة وأقوى عزيمة وإصراراً ، ويكفى هذا الدليل الواحد على أنه دين الواحد لو أن البشرية تنبهت إلى هذه الدلالة الحميدة .

ولكن لا بأس فلننظر إلى الأديان الحاضرة : أهى البوذية ؟ وهى لا تعترف صراحة بوجود إله . وكيف يكون دين بلا إله ؟ أم اليهودية ؟ وهى — فيما يرى البشر من أخلاق أصحابها وكتبهم — دعوة إلى الانحلال والجشع والطمع والفساد والإفساد . أم هى المسيحية ؟ وفى المسيحية طوائف متعادية ومذاهب متناصرة ولكل من هذه المذاهب رصيد من المال يرصده ليرسل المبشرين والمبعوثين فإذا أول درس يتلقاه من يريد أن يتعلم منهم أن يعادى المسيحى الذى لا يسير على مذهبه . فكيف يكون الدين إذا كان أول ما يتعلم منه هو الحقد والحسد والتنافس والحرب ؟ أجل لقد انفصلت مسيحية القرن أصل دعوتها كما أرادها الله سبحانه وتعالى من دعوة إلى التسامح وإيمان بالإنسان وحرب للظلم والطغيان .

هذه الحقيقة بهتت كبار المفكرين المسيحيين حتى أن فولتير عند ما قارن بين المسيحية والإسلام قال « أولا يثير الابتسام أن يؤسس لوثر وكلفن وزونيغمل وجميع من لا يمكن قراءتهم من الكتاب فرقاً تقتسم أوربة وأن يعطى محمد الأمى آسية وأفريقية دينا ، وألا يكاد السادة نيوستن وكلارك ولوك وكلير وغيرهم أى هؤلاء الذين هم أعظم فلاسفة زمنهم وأحسن حملة الأقلام فى عصرهم يستطيعون إقامة جماعة صغيرة نرى نقصان عددها يوماً بعد يوم ؟ » .

أجل . لقد انتصر الإسلام على أعدائه وسيكسب فى المستقبل القريب أنصاراً جدداً على أن نخطط منذ الآن لهذا العبء الملقى على أكتافنا . وأرى من أجل ذلك أن تنشأ مؤسسة للبعوث من الشعوب الإسلامية جمعاء وينضم إليها الأزهر بإمكانياته ووزارة الأوقاف ويشرف عليها المؤتمر الإسلامى وأن يختار المبعوث اختياراً صحيحاً بحيث يكون على دراية من دينه ووعى من مشاكل العصر وتفهم لمذاهبه وعالم بعادات القوم الذين سيرسل إليهم وأن يجوز إلى هذا كله حمية دينية وغيرة عربية تجعله يناضل ويجاهد ويحاول بما أوتى من طاقة أن يعتصم بالصبر وبحبل الله حتى يفوز برضى الله ورضوانه وذلك هو الفوز المبين .

ان فى أفريقيا وحدها أربعين مليوناً من الزنوج الذين لا يدينون بدين وقد أراد الغرب بكل إمكانياته أن يضمهم إلى جانبه ففشل وبقى علينا نحن الدور فى معمعة الكفاح فانخض المعركة ونحن مزودين لها بكل عدة وسلاح ولنحاول أن نهدى النفوس الضالة ونعلن للبشرية ديننا مرة أخرى من فوق قباب أفريقيا وآسيا فتبقى الدلالة القاطعة زاهرة ساطعة على أن هذا الدين يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً .